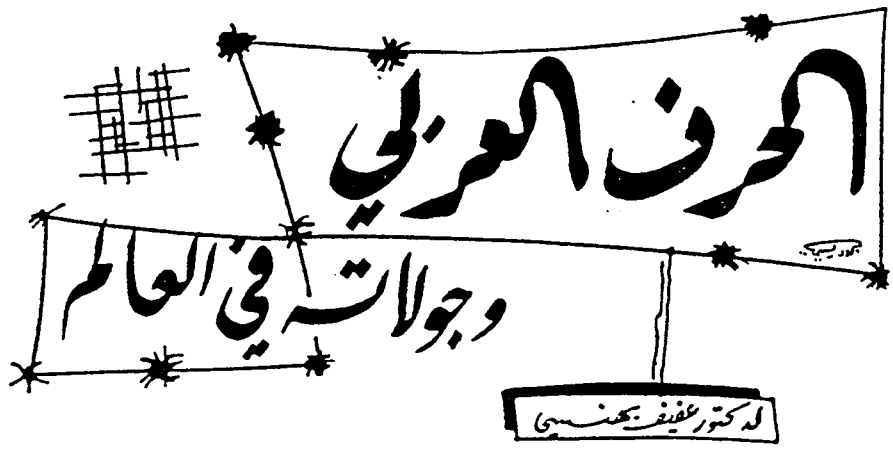

مديـر الفنـون الجميلة (دمشق)

ليس منا من يعرف كيف تعلم لغـة المخاطبـة التي ينقل عن طريقها افكاره . والـذي نذكره عـن اطفالنا انهم منذ نشأتهم الاولى كانوا يحاولون التعبير عن حالة عاطفية معينة ، فعندما يحاول الطفـل ان يلفظ كلمة (ما) او (ماما) فانه يكثف بهذا الجرس القصير كل ما يختزنه وجدانه من عاطفة الانتماء وتحقيـق الرغبات . ومن المؤكد ان هذا الطفل ، واي طفل ، لا يلقن اصول الكلام وفق الاصول القاعدية التي تلقـن بها اللغات في المدارس ، بل انه يتلقن في الواقـع الجرس المنسجم مع الاشارة التي يرغب التعبير فيها عن خياله الفطـري .

هنا نجد انفسنا امام فروق لابـد من ايضاحها ، بين الجرس وهو المظهر الصوتي للاشارة وبين الاشارة ذاتها وهي انبثاق الحدس من الوجدان ، وبمعنى آخر ان الاشارة هي الانفعال في طور التكون ، وهو انفعال مجرد ، هو حالة وجدانية لم يصرح عنها بعد ، ولذلك فهي تبحث عن صورة صوتية او صورة شكلية ، وفي هذه المرحلة تنتقل خطوة خطوة من العفوية التصويرية الى العقلانيـة التقنيـة .

قد يكون من واجبي ان اقف قليلا هنا لكـي اتساءل ، لماذا نسر ونفرح وندهش امام النبـرات او الخطوط التي تصدر مفاجئة عن اطفالنا — بينما نقدر تقديرا المعارف التي تزداد في ذهن كبار اطفالنا دون ان يرافق ذلك النشوة التي تصاحب سماعنـا اللحـن الجميـل ؟...

يخيل الي ان تفسير ذلك ممكن جدا ، فكلمـات الطفل وخطوطه الاولى هي ابداع ، هي كشف عـن زاويـة جديدة من الحياة . واذا اضفنا الى ذلك مـا تبيناه قبل قليل ، من ان الكلمة هي الصورة الصوتية او الشكلية العفوية في بدايتها ، والمعبرة عن حالـة عاطفية معينة ، فاننا نقف امام تعريف الفن بكـل وضـوح .

وليست الصورة الشكلية ، وقد تدرجت مـن رسم الشكل ذاته الى صور هيروغليفية او الـى رموز ، الا الكتابة ذاتها التي خضعت فيما بعد الى مخارج الحروف فكانت هجائية او غاريت بداية التركيب اللغـوي القاعـدي .

هنا تأخذ اللغة طريقها الى التقنيات القاعديـة والصرفية والبلاغية كما يأخذ الفن طريقه الى تقنيات اخرى ترتبط بقواعد الرسم والتلويـن ، او باصول التنغيم والطباق وغيرها . ولكن مهما تكاثرت تلـك القواعد التقنية فانها لن تختلط مطلقا بالاصـول المبدعة ولن تأخذ مكانها ، ولن يحـول هذا دون ان نقول بوحدة طبيعة اللغة والفن ، بل اننا نستطيـع ان نعكس القول السائر (الفن لغة) لكي نقول (اللغة فن) . ويبدو ذلك اكثر وضوحا في الكتابة الهيروغليفية ، فلقد لعبت دورا رئيسيا في تحديـد خصائص الفـن المصري القديم ؛ كذلك كان شأن الكتابة المسماريـة الاولى التي ابتدات تصويرية رمزيـة ، فـاذا اراد السومري القديم التعبير عن شرب الماء مثلا ، رسم شكلا مجوفا يعبر عن الفم وفي وسطه يرسم خطـا عموديا صغيرا بأسفله دائرة صغيرة يرمز بها الـى نقطة الماء الساقطة من السحاب .

اما الكلمة العربية ، فليس بامكاننا ان ننظـر اليها هذه النظرة التصويرية بعد ان اصبحت مؤلفـة من حروف هجائية مركبة . الا اننا اذا ما استعرضنـا تفنن الخطاطين في زخرفة ورقش هذا الخط لتبيـن

لنا ان الحرف العربي حمل خصائص الفن العربي وكان رسول هذا الفن فى جميع هجراته واسفاره .

ولسوف يقتضينا الحديث فى هذا الموضوع العودة الى البحث عن جذور الحرف العربي فى بدوات التاريخ .

ثمة اصول للغة العربية لفظا وصورة ، اشبعت درسا من قبل علماء اللغة ، ولكن لابد من تصحيح الخطأ الذي انتشر منذ عام 1871 استنادا الى ما جاء فى سفر التكوين ، يقوم على اعتبار اللغات التي انتشرت وتطورت على الارض العربية فيما بين النهرين وحتى الجنوب العربي هي لغات سامية نسبة الى سام بن نوح ، ومن المؤكد ان نسبة هذه اللغات أو اللهجات الى سام أمر مجازى وليس من المنطق او الواقعية التاريخية فى شىء ، واذا ما لجأت الكتب القديمة الى الالتصاق بهذا النعت فلانها لم تجد ضمن اطار القصص الديني الا اسماء الاوائل مصدرا ونعتا ، وكان ذلك نتيجة تسمية الاقوام العربية بالاقوام السامية تجوزا ايضا . ومن حسن الحظ ان العلماء والمؤرخين المعاصرين من امثال شبنغلر وتونبي ودروزة (1) اخذوا باعادة النظر فى تسمية الارض واللغات والاقوام التي عاشت بين الرافدين ووادي النيل ، فاصبحت العروبة هي الصنف الاقوى لجميع مقومات هذه الشعوب والحضارات ، وهكذا نقول انه نشأت على هذه الارض العربية لغة عربية تطورت منذ عهد الاكاديين حتى يومنا هذا مارة عبر الاموريين الى الكنعانيين والاراميين ، تاركة وراءها لهجات واضحة منها الاوغاريتية والكنعانية القديمة والمؤابية والعبرية والفينيقية التي اطلق عليها ايضا فى افريقيا (قرطاجنة) اسم البونية ، ثم ظهرت اللغة التدمرية والنبطية التي منها العربية الحديثة وهي اكمل اللغات السابقة واقربها الى الاصل واطولها استمرارا . ولقد حاول فيشر (2) وضع معجم عربي عني فيه بتاريخ الكلمة وتطورها دلالة وصوتا مع مقارنة الاصل العربي لهذه الكلمة بما يقابله فى اللغات التي اطلق عليها السامية . وقد توقف هذا العمل الجليل بسبب الحرب العالمية الاخيرة، ثم توفي العالم فيشر قبل أن ينتهي القاموس .

ولئن أردنا اعادة تتبع تطور اللغة من ناحية تطور الحرف وحسب ، لرأينا انه منذ بداية الالف الثالثة قبل الميلاد نزحت اولى القبائل العربية من جنوبي الجزيرة لكي تستقر فيما بين الرافدين وقد افلت حضارة السومريين ، فاتخذوا اكاد عاصمة لهم ثم عرفوا باسمها وكانت لهم لغة ذات كتابة . ولكنهم اخذوا فيما اخذوا من تراث السومريين الكتابة المسمارية التي استفادوا منها ولاشك لتسهيل تعاملهم مع السومريين الذين استمروا فى معايشة الاكاديين .

ولان التاريخ لم يقطع بعد فى تفريق الاكاديين عن الاموريين (سكان الغرب) فان اللغة التي استعملها اولئك وهؤلاء واحدة او متقاربة وان استعمل الاموريون كتابة اخرى غير المسمارية هي من بدوات الكتابة العربية الاصيلة التي تأكد انها كانت اصل الكتابات العربية الاخرى من كنعانية وآرامية وسريانية وعربية حديثة .

بيد ان الكتابة العربية قد سارت فى الجنوب وفق تطور آخر ، فانتقلت من ثمودية الى صفوية الى الكتابة المسندية فالنبطية التي التقت بالعربية الحديثة.

وهكذا كانت الكتابات فى الجنوب مختلفة حتى ان قرابة الكتابة الكوفية بالكتابة الآرامية تبدو اكثر وضوحا مما بين الكتابتين العربية الكوفية والحميرية، ويزيد فى تأكيد الرابطة بين الخط العربي والخط الارامي ، الابجدية ووحدة اسماء الحروف = الالف — الجيم — الدال — الزاي — الشين والصاد والضاد . ومنها ان كل حرفين يلفظان من مخرج واحد يتشابه رسمهما فى العربية وفى الآرامية السريانية كالصاد والضاد ، والطاء والظاء .. وثمة دليل آخر على تفرع الحرف العربي من الارامي هو ان الحرف الارامي يكتب متصلا وله ثلاثة اشكال بحسب موقعه من الكلمة كما هو الامر فى الكلمة العربية ثم انهم يفصلون فيما بعد بعض الحروف كالراء والواو والالف والدال .

---

(1) محمد عزة دروزة — تاريخ الجنس العربي بيروت 1964 .

(2) فيشر اوغست مستشرق الماني ، ابتدأ منذ عام 1907 باعداد هذا القاموس ، فى القاهرة ، واثناء الحرب اعتقد ان اوراقه نفدت فى مجمع اللغة العربية ، ويبلغ عددها 26 الف بطاقة ثم قام المجمع بنشرها عام 1950 تحت عنوان « معجم تاريخي للغة الآداب العربية حتى نهاية القرن الثالث الهجري » . وكان العالم كوكوخ قبل ذلك .

ان هذا النسب القديم للكلمة العربية دفع العرب الى الاعتقاد بأزلية الكلمة (في البدء كانت الكلمة) وفي حديث شريف (ان أول ما خلق الله القلم) ولابد من الاشارة الى ان كلمة قلم توجد في كثير من اللغات العربية السامية ولقد انتقلت الى اليونانية (كلاموس) عن طريق الفينيقية ، ومنها الى الفرنسية Calame . وفي رواية ان اخنوخ عليه السلام انما سمي ادريس لانه أول من درس الخط وخط بالقلم.

ان هذه المقدمة العاجلة توضح لنا اصالة اللغة العربية وخاصة كتابتها وارتباطها المتلازم بتطور التاريخ العربي منذ بداية التاريخ الى اليوم ، ولان الحرف العربي وصل الى كماله في العربية الحديثة التي ظهرت منذ بداية الميلاد ، فانها وحدها ستكون موضوع حديثنا الآن .

ان أول الخطوط العربية الحديثة التي عثر عليها نقوش في وادي المكتب (صحراء سيناء) تؤكد العلاقة مع الآرامية وفيها تبدو بعض المقاطع مثل بن ويعلي عربية الصياغة والرسم ويرجع هذا النقش الى عام 210م .

ثم يتطور الخط العربي نحو الوضوح شيئا فشيئا كما يبدو في لوح مدائن صالح الذي يرجع الى عام 267م. وفي القرن الرابع الميلادي نرى الخط العربي قريب الصلة بالخط المألوف كما في لوح النمارة (حوران) الذي يشير الى قبر امرىء القيس بن عمرو والمؤرخ في عام 328 ميلادي .

وهكذا فان الخط العربي قد تدرج بوضوح عن الخطوط السابقة للخط العربي الحديث ولعل هذا أيضا يفسر تدرج اللغة ذاتها وقد كان مجهولا ، بل كان يعتقد ان اللغة العربية ولدت كاملة دون ان تعرف لها طفولة نامية او نقص تكامل على الايام ، كما يقول ارنست رينان . ويؤكد جميع المؤرخين فوق ذلك ان العربية قبيل الاسلام كانت لهجات مختلفة وذات كتابة واحدة وان اختيار القرآن للهجة قريش كان مبدأ توحيد اللغة العربية الادبية والدارجة لفظا وكتابة .

ونحن لا نعتقد ان هناك خلافا في جذور الكلمة العربية صورة وجرسا فاذا كان صوت الكلمة امتدادا لبادرة صوت الطبيعة كما يقول الارسوزي (3) ، وان رائدها الملأ الاعلى ، وان مثل اللسان العربي كمثل هيكل عظمي يوحي بكل من عظامه المبعثرة في طيات الارض لنوع منشئه . فاننا نقول بأن صورة الكلمة العربية ذاتها هي انعكاس لصورة الطبيعة بحسب رؤية حدسية توليدية وبذهنية وذوقية خاصة نسميها هنا ذوقية عربية .

ويوضح ذلك ما يقوله الارسوزي (4) « ان الاسماء تنزل من السماء — الحس ، حدس اجدادنا في اصول كلامنا ، الحدس الذي يتضمن الانسجام مع الغرائز والاشياء من جهة وبينها وبين المفاهيم التي تتلخص بها الغرائز والاشياء من جهة ثانية » .

على أن اهمية صورة الحرف العربي تبدو في الواقع من خلال ارتباطها بكتابة القرآن الذي انتشر بانتشار الدين الاسلامي ، والواقع ان الدين الاسلامي لارتباطه باللغة والكتابة العربية حمل خصائص العرب الى كل مكان أصبح عقيدة عامة فيه ، ويؤكد ذلك ارنست كونل (5) فيقول : « لقد منح العرب الدين الاسلامي اللغة والخط ، وانتشر الخط العربي في العالم الاسلامي فأصبح رابطة لجميع الشعوب الاسلامية رغم الحدود الحاضرة . » ولقد اعتني بالخط العربي منذ نشأة الاسلام ، فلقد روى ابن الاثير (6) أن الرسول اقام في المدينة قبل اي شيء مسجد المدينة وجعله للتعليم وكلف عبد الله بن سعد ابن العاص وعبادة بن الصامت بتعليم الكتابة ، ولقد أوفد الرسول معاذ بن جبل لتعليم الكتابة والخط فأخذ يتنقل في عمالة كل عامل ، وقال علي « عليكم بحسن الخط فانه مفتاح الرزق » ، كما قال ابن العباس « الخط الجميل يزيد الحق بيانا » .

وتطور الحرف الجميل بسرعة بعد ان أضيف اليه الاعراب والرتش . ولقد روى البلاذري عن ابن النديم في كتابه الفهرست « اختلف الناس في أول من وضع الخط العربي فقد قال ابن عباس : أول من كتب بالعربية ثلاثة رجال .. سكنوا الانبار .. وهم مرامرة بن مرة ، واسلم بن سدره ، وعامر بن جدرة . فأما مرامرة فوضع الصور ، وأما اسلم ففصل ووصل وأما عامر فوضع الاعجام » .

---

(3) زكي الارسوزي (بعث الامة العربية) دمشق ص 8 .
(4) زكي الارسوزي نفس المرجع ص 9 .
(5) ارنست كونل انظر فن الخط العربي المقدمة 1943 .
(6) ابن الاثير — اسد الغابة ص 175 .

ثم اخذ الخط اشكالا فنية بل اساليب بعضها تزييني صرف والآخر قاعدي . وأول الخطوط التزيينية الخط الكوفي ومنه المضلع الهندسي والمشجر والمضفر ، وهناك خطوط زخرفية اخرى كالطغرائي والديواني والفارسي ايضا .

اما الاسلوب القاعدي فلقد ابتدأ مزيجا من الكوفي والحجازي ؛ ثم ظهر قلم الطومار والثلث والثلثين والنصف ثم الرقعي أو الرقاع .

وتم ظهور الخط النسخي على يد الوزير بن مقلة واخيه الحسن . وفي المغرب حافظ الحرف على شكله الحجازي القديم . وابتكر العثمانيون الخط الهمايوني .

ولم يكن انتحال الحرف العربي خلال العالم الاسلامي وغيره الا انتقالا للفن العربي ذاته ، ذلك ان الوحدة بين الفن والحرف التي عرضنا لها في بداية هذا الحديث تبدو اكثر تماسكا بين الفن والحرف العربي ، ولعل التصاق الخط العربي بالفن الزخرفي له تفسير ديني وجداني ايضا .

يقول كاسيرر (7) ان الفن هو الصورة التي تساعد على التعبير عن ــ الكلمة ــ اللوغوس والتي تعجز صورة الحرف المنطقية المحددة عن التعبير عنها، واقدم مثال على ذلك خط كوفي يرجع الى عام 784 م وهو نسخة قرآن كريم محفوظ في دار الكتب المصرية في القاهرة وفيه يبدو امتزاج الخطوط بالزخرفة في عناوين السور والاحزاب .

ويقول لوبون (8) كان للغة العرب مثل ما للدين من حظ فقد ظلت اللغة العربية في بلاد فارس ، لغة اهل الادب والعلم ، وظل الفرس يكتبون لغتهم بالحروف العربية ؛ ولقد كتبت ما عرفته بلاد فارس من علم الكلام والعلوم الاخرى بلغة العرب ، وللغة العربية في هذا الجزء من آسيا شأن كالذي كان للغة اللاتينية في القرون الوسطى . »

« وانتحل الترك انفسهم ، الخط العربي ، ولا تجد في تركيا انسانا على شيء من التعليم لا يستطيع أن يفهم لغة القرآن بسهولة » .

ولقد حور الايرانيون الخط الكوفي فأصبحت المدات فيه اكثر وضوحا من الجرات . ومن الخطاطين المشهورين أبو القاسم بن ابراهيم (في القرن الحادي عشر) وميرعلي تبريزي (في القرن الخامس عشر) وسلطان مشهدي وعبد الكريم الخوارزمي .

كذلك انتقل الخط الى الاتراك فحولوا خط الرقاع وابتكروا الهمايوني ومن اشهر خطاطيهم الشيخ حميد الله الاماسي امام الخطاطين العثمانيين، وجلال الدين الحافظ عثمان الذي كتب المصحف الشريف بأروع الخط .

وفي الاندلس ذكر الضبي في (بغية الملتمس) ان الوزير الشاعر حسان بن مالك بن أبي عبيدة وزير المنصور بن أبي عامر ، الف وصور ونسخ كتابا من تأليفه في مدة اسبوع وقدمه هدية للمنصور .

وهكذا اعتبر الخط كما يقول كونل (9) اشرف الفنون وارتفعت مكانة الخطاطين واحتل عدد منهم منصب الوزارة كما تبين .

ولقد لقي الحرف في هجرته الى الاراضي الفارسية او التركية ، وفي الاندلس وسائر اوربا من الاحتفال ما وازى تقديره في ارض العرب ذاتها .

فلقد كان الامراء في فارس هم اول من اهتم بالخط العربي ونسخ القرآن . فلقد انشأ الوزير المغولي رشيد الدين ضاحية اسماها « ربع رشيد » قرب تبريز ، وفيها عهد الى مهرة الخطاطين والمصورين نسخ الكتابة الهامة وتصويرها ، من اهمها كتاب (جامع التواريخ) الشهير ، كذلك اصبحت هراة في عهد الصفويين عاصمة الخط والتصوير وكان بهزاد معلم التصوير وموجه الخطاطين .

وكان الحكام يقضون ساعات فراغهم بنسخ القرآن بجهد واجتهاد ، وهم يفتخرون بانتمائهم لاساتذة الخط ، ومن هؤلاء عضد الدولة البويهي ، والشاه طهماسب ، بل كان الامراء منهم يتسابقون لمساعدة الخطاطين بأن يمسكوا لهم بالمحبرة او يقدموا معونة بوضع الوسائد بمكانها او بامساك الشمعدان .

ولم يكن احتفاء الاسبانيين اقل من احتفاء الايرانيين بالحرف العربي ، بل ان الاسبان هجروا لغتهم كما يقول دوزي (10) كي يتعلموا العربية

---

(7) كاسيرر مدخل فلسفة الحضارة الانسانية ترجمة احسان عباس ص 206 .
(8) لوبون حضارة العرب ترجمة اكرم زعيتر ص 441 .
(9) ارنست كونل نفس المرجع ، المقدمة .
(10) دوزي ، في كتاب تاريخ المسلمين في اسبانيا مطبعة ليدن 1932 .

لغة وكتابة حتى لم يعد يوجد من يقرأ الكتب المقدسة باللاتينية بل ترجمت الى العربية كي يقراها نصارى الاندلس .

وكان اسحق فلاسكز القرطبي ممن ترجم انجيل لوقا من اللاتينية عام 946 ، ولعله ترجم الاناجيل الثلاثة الاخرى ايضا ، اما التوراة فلقد نقلت الى العربية بعد الفتح الاسلامي مباشرة .

ويقول بالانسيا Palencia كان المستعربون يتكلمون اللغة العربية ويدينون بالنصرانية ، وفى المدن الكبرى مثل طليطلة بقيت اللغة العربية يعول عليها القوم للكتابة ويستعملونها فى القضاء والتجارة زهاء قرنين بعد رجوع النصرانية على يد الفونس السادس عام 1085 .

ويؤيد ذلك ما قدمه دوزي وانغلمان من كلمات اسبانية وبرتغالية ذات اصل عربي ما زالت حتى اليوم ، صنفت فى معجم خاص .

ولقد كانت الاندلس مصدر اشعاع الثقافة العالية والعربية فلقد اصبح الاهتمام بالكتب شديدا وابتكرت لذلك طرائق اشبه بالطباعة ويذكر ابن الابار (11) (انه كان لعبد الرحمن كاتب اعتاد ان ينشىء الرسائل الرسمية فى منزله ثم ينفذها الى ديوان خاص يصير فيه اظهارها على الورق وهو نوع من الطباعة فتصدر فى نسخ متعددة توزع على عمال الدولة) .

وهكذا امتلأت المكتبات بالمخطوطات وكانت المكتبة الاموية فى قرطبة قد وصلت ذروتها ايام المستنصر بن عبد الرحمن الناصر عام 961 وقد حوت ما يزيد عن اربعة آلاف مجلد مخطوط ، ثم نهبت وتبددت بعد حصار قرطبة عام 1009 وما زالت بقاياها فى مكتبة الاسكوريال قرب مدريد حتى اليوم .

ولقد اهتم سواد الناس فى الاندلس بالمخطوطات ذات الخط الجميل ، ويذكر المقري (12) قصة عن الحضرمي قال : اقمت مرة بقرطبة ولازمت سوق كتبها مدة اترقب فيه وقوع كتاب كان لي بطلبه اعتناء الى ان وقع وهو بخط جيد وتسفير مليح ففرحت به أشد الفرح فجعلت ازيد فى ثمنه فيرجع الي المنادي بالزيادة علي ، الى ان بلغ فوق حده فقلت له يا هذا ارني من يزيد فى هذا الكتاب حتى ابلغه الى ما لا يساوي . قال فأراني شخصا عليه لباس رياسة فدنوت منه وقلت له : اعز الله سيدنا الفقيه ان كان لك غرض فى هذا الكتاب تركته لك فقد بلغت به الزيادة بيننا فوق حدها . فقال : لست بفقيه ولا ادري ما فيه ولكن اقمت خزانة كتب واحتفلت فيها لاتجمل بين اعيان البلد وبقي فيها موضع يسع هذا الكتاب فلما رايته حسن الخط جيد التجليد استحسنته ولم ابال بما ازيد فيه » .

كذلك امتد الحرف العربي الى انحاء لا يحكمها العرب فى الجزيرة الايبيرية . يقول جورج غراف (Graff) « سلك الفنس على غرار بعض اسلافه فكتب بالعربية على النقود التي سكها . وكان بطرس الاول المتوفى عام 1104 من ملوك الاراغون لا يحسن الا العربية كتابة . واستعمل المستعربون الحروف العربية بكتابة اللاتينية ايضا » .

على أن هجرة الحرف الجميل الى الاندلس لم تنقطع بانقطاع سيادة العرب على هذه الارض الواسعة بل ان هذا الحرف وقد تمكن كعنصر من عناصر الزخرفة الجميلة ، قام بسياحات بعيدة المدى وترك آثارا ما زالت ماثلة فى كل مكان انتقلت اليه الاشياء ذات الرقش والكتابة العربية .

ففي عام 1491 استسلمت غرناطة وغادر عبد الله الصغير قصر الحمراء وكان قد اتفق مع الاسبان على حفظ نفوس المسلمين واهلهم ومالهم وشريعتهم ، ولكن فرديناند وايزابيلا نكثا العهد وقال الكاردينال زيمانس دوسيس نيروس de Cisneros يحمل المسلمين على التنصر وأمر بحرق الكتب العربية فى غرناطة .

ولقد اصبح اسم المسلمين الذين لم يهجروا البلاد بعد سقوط غرناطة (الموريسكو) . وكان لهؤلاء لهجة رومانسية (اي محرفة عن اللاتينية) الا انهم استخدموا الحروف العربية لكتابته . ويطلق على هذا الادب واللغة عبارة الجميادو Al Jamiado وهي تحريف للفظة (الاعجمية) العربية ولقد عثر على مجموع مخطوطات بهذه اللغة تحت الارض فى بيت قديم بالاراغون لعلها اخفيت عن عيون رجال

(11) ابن الابار ــ الحلة ص 137 .
(12) المقري نفح الطيب ، ج 1 ص 32 .

التفتيش ، ولقد جمعت هذه المخطوطات فى كتاب تحت عنوان (المخطوطات العربية والجيادو) فى مكتبة الجونتا صدر فى مدريد عام 1912 .

وانتقل الحرف العربي مع عناصر الخط والزخرفة الى اوربا بواسطة عدة طرق :

اولا — عن طريق الحروب الصليبية فى المشرق العربي . فلقد نقل الصليبيون وملوكهم العديد من الاشياء الفنية ذات النقوش والكتابات العربية اعتبرت اساسا لتقليد الحرف العربي فى بعض الزخرفات الاوربية . وما زالت بعض تلك الاشياء الفنية موجودة فى متاحف اوربا ، نذكر منها الاناء الزجاجي الذي يعود الى الفسفاط من العهد الفاطمي ويمثل كتابة خطية وصورة تيوس وحشية متقاتلة . وثمة طاس رائع منقوش مزين بنسر واسدين ، وهما محفوظان بمتحف امستردام .

وفى كنائس سان مارك فى البندقية وكنيسة سان دونيس مجموعة من الاكواب والاباريق منقوشة بالزخرفات والخط العربي .

وفى بيزا ابريق يطلق عليه اسم عقاب كامبو سانتو ؛ ويقال ان اموري ملك القدس قد استحضره معه من مصر .

وفى اللوفر ابريق عربي من البلور يرجع الى القرن العاشر من الميلاد محلي عند عنقه بكتابات كوفية .

وفى متحف شارتر قدح يعرف بقدح شارلمان وقد جيء به من الشرق ايام الحروب الصليبية .

وعدا هذه الاشياء هناك المنسوجات التي نقلت من الشرق والتي استخدمت فى تغطية رموس الشخصيات الدينية باعتبارها اشياء ثمينة ؛ ومثالها القطع الحريرية الرائعة المزينة والموجودة فى كادوين مقاطعة بيريغورد فى فرنسا والتي تحمل اسم الخليفة الفاطمي المستعلي (الذي حكم من 1094 الى 1101) .

وكذلك الوشاح المنسوب للقديسة حنه والموجود فى كاتدرائية آبت Apt ، وهو قطعة من الطراز مصنوعة من الكتان والحرير عليها اسم نفس الخليفة .

ثانيا — كذلك انتقل الفن العربي ومعه عناصر الخط والحرف الجميل الى اوربا عن طريق المستعربين Les Mozarabes فى الاندلس الذين عاصروا المسلمين وتظاهروا بالاسلام واخفوا دينهم ولكنهم تبنوا تقاليد العرب ولغتهم . ومن منشآتهم التي شيدوها الكنيس المنشأ فى طليطلة عام 1200 والذي اصبح فيما بعد كنيسة سانت ماري لابلانش . وينتسب الطراز فيها الى فن الموحدين كما تؤكد الكتابات العربية الثابتة عليها اهتمام نصارى الاندلس بالحرف العربي .

كذلك زين هنري الثاني دوترانستامار de Transtamare الكنيسة التي اضيفت الى المسجد الاموي فى قرطبة بالزخرفات العربية والكتابات البديعة .

وفى كنيسة الترانسيتو فى طليطلة نقوش امتلأت بكتابات عربية ذات موضوعات دينية اسلامية .

ثالثا — والطريق الاهم الذي انتقل عليه الحرف العربي هو طريق المدجنين Les Mudéjars وهم المسلمون العرب الذين دجنوا فى الاندلس بعد نزوح العرب عنها فاستمروا على تمسكهم بالتقاليد العربية ونقلوا التراث العربي الى الآثار الرومانية والقوطية ، وكانوا جسرا فى نشر ذلك خلال اوربا .

والفن المدجن هو صورة مطابقة تماما للفن العربي الاسلامي الذي كان سائدا ايام الحكم العربي . ولقد حفظ طابعه الاصيل فى العمارة والزخرفة والكتابات ويبدو ذلك واضحا فى تزيينات قصر اشبيلية Alcazar de Séville الذي انشىء عام 1354 من قبل بيير لوكرول Le Cruel فى نفس مكان مخطط القصر العربي القديم الذي انشاه العرب فى القرنين الحادي عشر والثاني عشر .

ويقول مارسيه (13) (رغم ان هذا القصر الاندلسي قد رمم كليا فى القرن السادس عشر والقرن السابع عشر والقرن التاسع عشر ، فانه ما زال يكشف عن مشاركة الفنانين الغرناطيين ويؤكد بصورة قاطعة تأثير طابع الفن الاسلامي على الملوك المسيحيين) ونضيف خاصة بالكتابات العربية عبارة (لا غالب الا الله) .

على ان الطريق السريع الفعال لنقل الحرف العربي كان فى الاشياء الفنية التي انتشرت من الاندلس .

فلقد انتشر الخزف العربي من بلانسيه فى الشمال ووصل الى هولاندة ثم ايطاليا حاملا رقشا وكتابات عربية واستمرت هذه الاواني تحمل

الكتابات العربية حتى بعد انتهاء الحكم العربي وسرى تقليد هذه الكتابات دون التعرف على مضمونها أو الاهتمام بمعالمها . ولقد اطلق على الخزف أو الزليج اسم (ازليخو) بالاسبانية كاستمرار لهذا الفن العربي وتقاليده .

كذلك كانت الانسجة التي تصدرها غرناطة (غرنادين) بما تحمل من كتابات عربية موضع اهتمام رجال الكنيسة والبلاط فى الغرب مما دعا الصناع الغربيين الى تقليدها . ويذكر مارسيه (14) أن كنيسة سانت اتيين فى غورماس تحوي نقابا من الكتان المطرز بالحرير الملون يحمل اسم هشام الثاني (976 — 1015) .

وكما هو الامر فى صناعة الزجاج والخزف والعمارة فلقد نقل النساجون الاوربيون منذ القرن الثامن عشر المواضيع العربية والزخرفات واصبحت صورة الحرف العربي هي المقصودة بذاتها .

وثمة طريق آخر انتقل بواسطته الحرف العربي الى مهاجره فى مراكز الفن العالمية ، هو طريق صقلية التي حكمها الاغالبة ثم الفاطميون من عام 827 وحتى عام 1091 ، ثم استمرت عربية فى عهد النورمان . فلقد اعتمد روجر الاول المتوفى عام 1101 على المسلمين فى جيشه كما شمل العلوم العربية باهتمامه فقرب الفلاسفة والاطباء العرب واستعان بشؤون الدولة بموظفين من العرب وكان بلاطه شرقيا صرفا . واستمر العرب قرنا كاملا بعد ذلك يديرون الوظائف العامة .

اما روجر الثاني فكان يلبس لباس العرب وكانت جبته مزينة بالحروف العربية ، وما زالت محفوظة فى باليرمو حتى الآن . واستمر الزي الاسباني العربي سائدا فى صقلية حتى ولاية وليم الثاني الذي مات عام 1689 .

ويقول الرحالة العربي ابن جبير : « لقد كان الملك روجر الثاني ينصت بكل انتباه لجميع النصائح التي كان يقدمها له العرب وكان يقرأ ويكتب العربية بطلاقة . وكانت نساء باليرمو المسيحيات يقلدن المسلمات فكانت تتحجبن ويطلين اصابعهن بالحناء وكن يتكلمن ايضا اللغة العربية » .

اما فريدريك الثاني (1215 — 1250) والذي امتد حكمه الى المانيا والى القدس واصبح اعظم ملك مسيحي ، فلعله كان اكثر تعلقا بالعادات العربية . فقد اقام لنفسه بيت حريم وارخى لحيته وارتدى ملابس المسلمين وتهادن وتعاون مع السلطان الايوبي الكامل . ولقد قرب اليه المترجمين مثل ثاذري وميخائيل سكوت لكي ينقلوا له عن العربية كتب التنجيم والفلسفة وعلم الحياة والحيوان وقصة كليلة ودمنة

ولعل اقدم وثيقة اوربية مكتوبة باللغتين اليونانية والعربية هي الامر الاداري الذي اصدرته زوجة روجر الاول عام 1109 .

ولدينا من عهد الملك روجر الثاني اقدم النقود التي تحمل تاريخا مكتوبا بالارقام العربية 1138 ومعها نقش عربي .

وما زالت الكتابات الموجودة فى سقف كنيسة البالاتين فى باليرمو أو بلرم تذكرنا بهجرة منتصرة للحرف العربي فى أوربا .

وكنيسة البالاتين فى باليرمو انشئت عام 1140 وزينت خلال السنوات التي تلت هذا التاريخ مباشرة، وهي عبارة عن مطى بيزنطي الطراز محلى بالفسيفساء مزين بمشاهد من العهد القديم ، أما السقف فهو من الخشب المصنوع وفق الطراز الاسلامي ومحلى بمقرنصات . وعلى هذا السقف مجموعة من الصور تنسب بوضوح الى اسلوب الفن العباسي فى سامراء ومنها صورة روجر الثاني وقد ارتدى معطفا كتبت عليه كلمات عربية هي (مسرات الليل والنهار دون انقطاع أو تغيير) (15) .

ويقول ايتنهاوسن (15) Ettinghausen انه ثمة كتابات على سقف كنيسة القصر تتضمن عبارات اسلامية كتبت بالخط الكوفي رغم انها تمت فى عهد مسيحي كما تضمنت واجهة الساعة الشمسية فى ساحة القصر دعاء الى الله بالعربية بأن يطيل حياة وسعادة الملك . ولقد ارخ ذلك بالهجري . ثم يقول : « كذلك نقش اسم الله والتاريخ الهجري على حجرة قبر اقامه كاهن الملك ، غريسانت لامه عام 1149 . »

---

(13) مارسيه فى كتابه الفن الاسلامي طبعة 1962 ص 169

(14) مارسيه نفس المرجع ص 97 .

(15) ايتنهاوسن — التصوير العربي — سكيرا ص 44 .

ويقول مارسيه (16) ، « لقد اصبحت صقلية فى عهد الاسلام وفى عهد النورمان وسيلة انتقال الطرز العربية الى الغرب المسيحي » .

ولقد كان معمل الحياكة المشهور الذي انشاه امراء المسلمين فى قصر باليرمو الملكي يجهز العائلات الملكية فى اوربا بالملابس الرسمية التي طرزت عليها الكتابات العربية واصبح هذا تقليدا بدا واضحا فى البندقية وبيزا . وازداد الطلب على المنسوجات الشرقية واصبح الاوربي انما يعتبر انيقا بامتلاكه الزي العربي .

ويقول لوبون Le Bon (17) : ولقد بلغ الخط العربي من الصلاح للزينة ما جعل رجال الفن فى القرون الوسطى وفى عصر النهضة يكثرون من استنساخ ما كان يقع تحت ايديهم اتفاقا من قطع الكتابات العربية فيزينون بها المباني المسيحية سائرين فى ذلك مع الهوى . ثم يقول : « لقد شاهد السيدان لونغبرييه long perier ولافوا La voix وغيرهما الشيء الكثير منه فى ايطاليا . ومما شاهده السيد لافوا فى مكان الامتعة فى كاتدرائية ميلانو باب مبني على طراز رسم البيكارين يحيط به افريز حجري مزين بكلمة عربية مكررة عدة مرات ، وكتابة عربية اخرى حول راس المسيح المصور فوق ابواب كنيسة القديس بطرس التي امر بانشائها البابا اوجين الرابع بالاضافة الى خطوط كوفية طويلة على قميص القديس بطرس والقديس بولس » . وتابع لوبون قوله : ومن دواعي اسفي عدم ترجمة هذا الكاتب لهذه الكتابات فقد تكون الكتابة التي حول راس المسيح هي عبارة (لا اله الا الله محمد رسول الله) .

ولقد لفتت انتباهنا هذه الملاحظة فتمنينا بالتحقيق الممكن وكان همنا التأكد من وجود مثل هذه الكتابات العربية على مصراعي باب كنيسة القديس بطرس فى الفاتيكان .

واحب ان المح هنا الى ان ملاحظة لافوا على لسان لوبون لم تكن واضحة ودقيقة بل كانت مختلفة عما توصلنا اليه .

وقصة هذا الباب تبتدىء منذ ان قام (غيبرتي) Ghiberti بتصميم الباب الثاني لمعمودية فلورنسا وكان قد نال شهرة واسعة مما دعا البابا اوجين الرابع ان يطلب من احد مساعديه وهو انطوني افيرلينو Averlino والمدعو فيلاريتي Filareté ان ينفذ له اكبر واعقد مشروع فني نحتي فى مقر البابوية وهو الباب البرونزي فى كنيسة القديس بطرس (سان بيير) .

ولم يكن فيلاريتي مرتبطا بأي اسلوب من اساليب عصر النهضة ، الا انه نشأ فى فلورنسا والم بالثقافة الكلاسية فى روما بين عامي 1433 — 1445 كما يؤكد ذلك فازاري Vasari وفى ذلك الوقت قام فيلاريتي ومساعدوه بانهاء هذا الباب خلال اثنى عشر عاما .

ويتألف الباب من درفتين وكل درفة مؤلفة من ثلاثة الواح متواضعة ويمثل اللوحين الوسطيين القديس بطرس والقديس بولس وفوقهما لوحان متضمنان وجهي حواريين . ولقد عولج النحت البارز بكثير من الزخرفة التي تذكرنا بالرقش العربي كما تفصل الالواح الستة مشاهد صغيرة تذكرنا بقصص الاساطير الكلاسية والرومانية .

ونحن نميل الى الاعتقاد بان بعض مساعدي فيلاريتي كان عربيا من شمالي افريقيا او من الاندلس وذلك لوفرة الكتابات العربية التي كانت تحيط اطارات اللوحين الكبيرين ، والتي تحيط الهالات المحيطة برؤوس القديسين الاربعة .

ولم يتح لنا قراءة هذه الخطوط جيدا فقد تكون كتابة تصويرية او تكون من لغة الاعاجم الجميادو

ومن المحتمل ان تكون هذه الكتابات منقولة عن كتابات عربية او فارسية احاطت بعض السجاجيد الشرقية ، ذلك ان خلفية كل لوح مفروشة بنقوش السجاد ذات الطابع الشرقي وان كانت التفاصيل والصيغ غريبة . ولكن هذا لا يخفف من اعتقادنا بوجود صانع عربي او مستعرب اشترك بتصميم هذا الباب ، وقد يكون فيلاريتي نفسه قد زار الاندلس او شمال افريقيا . وسنفرد لهذا الباب دراسة مستقلة .

ويقول مارسية (18) « لقد كانت الحضارة العربية الاسلامية شديدة التغلغل فى عالمنا حتى ان العناصر الاسلامية طغت منذ نهاية القرن الحادي

---

(16) مارسيه نفس المرجع ص 99 .
(17) غوستاف لوبون — نفس المرجع ص 531 .
(18) مارسيه نفس المرجع ص 98 .

عشر فى واجهات الكنائس الرومية ثم رايناها فيما بعد تختلط فى الكنائس القوطية مع العناصر الواردة من فرنسة » .

ويوضح هذا القول ما نراه فى واجهة كاتدرائية انغوليم فى فرنسا حيث نرى تمثال المسيح وحوله اسد مجنح مستوحى من الزخرفة النباتية فى الفنون العربية، اما المسيح فان اسلوبه شرقي محض .

وفى لانغدوك فى ساحة مواساك اعمدة مزدوجة كتلك الموجودة فى الاندلس ذات تيجان مزخرفة برقش عربي وكتابات عربية بالخط الكوفي تعلو التاج ، ولكنها كتابات منقولة تصعب قراءتها وقد لا تكون لها دلالة قط .

وهكذا انتقل الحرف العربي الى اماكن متطرفة من العالم وتصدر واجهات الكنائس والاديرة، ولقد كانت صفاته الفنية كعنصر فذ من عناصر التزيين سبب انتقاله واحلاله المكانة اللائقة من التقدير ولم يحل مضمونه الديني المخالف دون استعارته فى اهم الاعمال الفنية والآثار . واستمر ذلك ما بقيت تلك الآثار والاوابد قائمة مئات السنين ولم تستطع حتى العصبيات المتزمتة ان تمحي آثاره مع الايام .

ومنذ بداية القرن الماضي كان ثمة اهتمام من قبل الفنانين والمفكرين بالفن والرقش العربي .

وفى مستهل هذا القرن ، وقد بدت الامة العربية شيئا فشيئا اقدر على التعبير عن نهضتها وتراثها ، اشتد الاهتمام بالعرب وآثارهم وتقاليدهم الفنية . وتركز هذا الاهتمام بالرقش العربي لقرابته من مفهوم التجريدية التي سرت تقليدا فنيا قويا فى هذا القرن .

مما لا شك فيه يبقى الحرف العربي من اجمل الصيغ المجردة خاصة بالنسبة لانسان لا يفقه دلالة هذا الحرف او ينسى هذه الدلالة لكي يستفيد من الشكل الجمالي للحرف .

وهكذا ظهر من الفنانين التجريديين المعاصرين فى اوربا من استعمل الحرف العربي فكان مدرسة مستقلة ذات اطار مستقل متميز ولقد تجلى هذا الاتجاه قويا واضحا عند بول كلي P. Klee ونالارد Nallard وهوفر Hoeffer وديغوتكس Degottex وتروكس Trox ومانوسيه Manessier

اما اعمال كلي التي تتضمن نماذج عن الخط الجميل العربي او غيره من الخطوط فهي كثيرة وتمتاز بالتطوير والتحوير . ولقد استمرأ كلي الخط العربي الذي يكتب من اليمين الى اليسار (19) نظرا لان كلي كان اعسر بل كان يستطيع التصوير باليد اليسري بنفس قوة اليد اليمنى ، وكان يطيب له ان يكتب جملا برمتها باللغة العربية باشكال الخط العربي الجميل ولكن دون ان يكون بمقدوره قراءتها او فهمها مع انه حاول ان يتعلم العربية .

ولقد امتاز اسلوب لويس نالار (المولود فى الجزائر عام 1918) باستعمال الكتابة العربية مع التصوير مستوحيا ذلك من الرقش العربي .

اما كارل جورج هوفر Hoeffer (المولود فى سيليسيا عام 1914) فلقد جذبته رشاقة الخط العربي وخاصة النسخي منه فاقام اسلوبه على اساس هذا الخط . وفى مدينة اوفنباخ فى المانيا متحف للكتابة وحسن الخط ضم مجموعات رائعة للخطوط العربية الاثرية كما ضم بعض اعمال هوفر للمقارنة وتحديد التاثير العربي على اسلوبه .

ولم يقصر الفنانون العرب الحديثون فى الافادة من الحرف العربي فى اعمالهم التصويرية الحديثة نذكر منهم ادهم اسماعيل ومحمود حماد وسامي برهان فى القطر السوري وحامد عبد الله وسعد كامل من القطر المصري واحمد شبرين من القطر السوداني وغيرهم .

ولقد جال الحرف العربي فى انحاء العالم مع لوحاتهم والتقى فيما التقى بالحرف العربي فى مهاجره على لوحات الفنانين العارضين المعاصرين .

(19) انظر فيلكس كلي فى كتابه ــ الكتابة والفن فى اعمال بول كلي .